تحريكا للعبرة ، وتذكيرا بالنعمة وحفزاً للفكرة، لا تقريرا لقواعد الطبيعة، ولا إلزاما باعتقاد خاص في الخليقة ، وأن الإسلام أطلق للعقل البشرى أن يجرى في سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد، وأن معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم...» وهو معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ماتشاء منها» (٧).

ويمكن التعرف على بعض جوانب منهج الإمام محمد عبده في تفسيره للقرآن الكريم ، بصورة عامة، من النماذج الثلاثة التالية :

١ – اتجه الإمام إلى إبراز رأيه، ولو خالف رأى جمهور المفسرين، عند تفسيره لقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

(سورة البقرة : ٢٤٣)

فجمهور المفسرين – وربما جميعهم – يرون أن المراد بالإماتة والإحياء معناهما الحقيقى الحسى، وأن الموت كان موتا حقيقيا حسيا لهم ، وأن إعادتهم إلى الحياة بعد ذلك كانت إعادة حقيقية حسية. وقد خالف الإمام محمد عبده – رحمه الله – إجماع المفسرين أو جمهورهم، فرأى أن المراد بالموت في الآية، الموت المعنوى، بمعنى أن موت الأمم إنما هو في جبنها وذلتها، وأن حياتها إنما تكون في عزتها وحريتها، فقال : «والمتبادر من السياق، أن أولئك القوم قد خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم، لا من قلتهم، فقد كانوا ألوفا، وإنما هو الحذر من الموت يولده الجبن في أنفس الجبناء . . . . لقد خرجوا فارين، فأماتهم الله بإمكان العدو من رقابهم، وأفنى قوتهم، وصاروا لا وجود لهم في أنفسهم، وإنما وجودهم تابع لوجود من أذلهم، وأزال استقلالهم. فلما غيروا ما بأنفسهم، فجمعوا كلمتهم، وطردوا أعداءهم، عادت إليهم الحياة، وعادت إليهم حريتهم وكرامتهم. وموت الأمم في جبنها وذلتها، وحياتها في استقلالها وحريتها، فهو – رحمه الله – يرى أن الموت والحياة في الآية معنويان(٨).

٢ – أفاد الإمام من المعرفة العلمية المتاحة في عصره وجعلها في خدمة تفسير القرآن الكريم، على غرار ما جاء في تفسير قوله تعالى :

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾

(سورة الشمس : ٥)

فيقول : "السماء اسم لما علاك وارتفع فوق رأسك. وأنت إنما تتصور – عند سماعك لفظ السماء– هذا الكون الذى فوقك : فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجرى في مجاريها وتتحرك في مداراتها، هذا هو السماء. وقد بناه الله : أى رفعه، وجعل كل كوكب من الكواكب منه بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيط بك، وشد هذه الكواكب بعضها الى بعض برباط

(٧) الشيخ الإمام محمد عبده، الإسلام دين العلم والمدنية، مرجع سابق.

(٨) أ.د. محمد سيد طنطاوى ، مرجع سابق